﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [التَّوبة: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الجزاء الأبديّ لمَن وَالَى اللهَ، والنَّهيُ عن موالاة الكافرين به

لمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العاطِفَةَ بِمَحاسِنِ الأَعْمالِ؛ شَرَعَ في بيانِ العاطفةِ بالأنسابِ والأَمْوالِ، وقَدَّمَ الأَعْمالَ؛ إيماءً إلى أنَّ التَّجانُسَ فيها مقدَّمٌ على المجانسَةِ في جميعِ الأحوالِ، ثُمَّ إنَّه لمَّا كان محطُّ الموالاةِ هي المُناصَرَةَ، وكانَ الانتصارُ بالآباءِ والإخْوانِ أَعْظَمَ مِنَ الانْتِصارِ بِغَيْرِهِم؛ اقتصرَ عليه، فقال سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: (الهمزَةُ والخاءُ والذَّالُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى حيازَةِ الشَّيءِ وجَمْعِه[2]، وهذا المعنى يكونُ تارةً بالتَّناوُلِ، كقولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، كقولِ اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[3] [البقرة: 255]، ومِن هذا البابِ وُرودُ المادَّةِ مُرادًا بها التَّحصيلُ، كقولهم: اتَّخذَ فلانٌ مالًا، أي: كسَبَهُ، وفِعْلُ (اتَّخذَ) هو افتعالٌ مِنَ الأخذِ، والمرادُ به: الأخذ للنَّفْسِ[4]، والاتِّخاذُ الواردُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، يُرادُ به: الجَعْلُ والتَّصييرُ، أي: لا تُصيِّروهم ولا تَجْعَلوهم أولياءَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (أخذ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾: (الواوُ واللَّامُ والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْبِ، ومنه: الوَلْيُ، وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعْدَ ولْيٍ، أي: بَعْدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني. ومنه: المَوْلَى، وهو يُطْلَقُ على معانٍ؛ منها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنَى القُرْبِ، كما هو بيِّنٌ[1]، ومِن أسماءِ اللهِ سبحانَه: الوَلِيُّ، ومَعْناهُ: النَّاصِرُ، أو هو المُتولِّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[2]، و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: بطانَةً وأَنْصارًا، و﴿يَتَوَلَّهُم﴾ بمعنى: يتَّخِذْهُم أولياءَ.

3) ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: (الحاءُ والباءُ) تدلُّ تصاريفُها على معنى تَجمُّعِ شيءٍ دقيقٍ أو لطيفٍ، ومنه: الحُبُّ، وهو ضِدُّ البُغْضِ؛ وهو راجِعٌ إلى معنى التَّجَمُّعِ والتَّلازُمِ، لِكَوْنِ الحُبِّ تَعَلُّقَ القَلْبِ بِالْمَحْبوبِ، ومُلازمَتَهُ إيَّاه، ماديًّا أو فِكْريًّا[3]، والفعْلُ منه: أَحَبَّ، يُقال: أَحْبَبْتُ الشَّيءَ، فهو مُحَبٌّ، والفاعِلُ: مُحِبٌّ، واسْتَحَبَّ مِثْلُ أَحَبَّ، والاسْتِحْبابُ: الاستحسانُ[4]، وهو المرادُ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، فإنَّ معناهُ: آثروهُ، والشَّيءُ يُؤْثَرُ على غَيْرِهِ: إذا استحْسَنَهُ المُؤْثِرُ.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: (الظَّاء واللَّام والميمُ): تدلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحقُّ؛ أي: مَنعِهِ أو انتقاصِهِ[5]، ومنه: الظَّلامُ؛ لحَجْبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: التي لم ينلْها المطرُ[6]، والظَّالِمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلْمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بزيادَةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقْتِه أو مكانِه[7]، ومنه: وصفُ الظُّلْمِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لكونِهِمْ قد وضعوا الولايَةَ في غير مَوْضِعِها.

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (حب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ظلم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظلم)، والرَّاغب، المفردات: (ظلم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نداء المؤمنين لنبذ المُعاندين بالكُفر، وتركِ موالاتهم، ولو كانوا أولي قُربى

يا أيُّها الذينَ صَدَّقوا اللّهَ تعالى ورَسولَهُ ﷺ، وعَمِلوا بِشَرْعِهِ، لا تَتَّخِذوا أَقْرِباءَكُمْ مِنَ الآباءِ والإِخْوانِ وغَيْرِهِم، بطانَةً وأَصْدِقاءَ، تُفْشونَ إليهم أَسْرارَكُم، وتُطلِعونَهُم على عَوْرَةِ الإِسْلامِ وأَهْلِهِ، وتَسْتَشيرونَهُم في أمورِكُم، وتُؤْثِرونَ المُكْثَ بينَ أَظْهُرِهِم على الهِجْرَةِ إلى دارِ الإِسْلامِ، ما داموا قَدِ اخْتاروا الكُفْرَ باللّهِ سبحانَه على التَّصْديقِ به والإِقْرارِ بِتَوْحيدِهِ، ومَن يتَّخِذْهُم مِنْكُم بطانةً وأَصْفياءَ فَقَدْ ظلَمَ نَفْسَهُ ظُلْمًا عَظيمًا، بِوَضْعِهِ الوِلايَةَ في غيرِ مَوْضِعِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ءَابَآءَكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا ابتدائيًّا، بقصْدِ افْتِتاحِ غرضٍ آخَرَ مِنَ القَوْلِ، وهو تقريعُ أهلِ النِّفاقِ ومَن يتولَّاهُمْ، وذلك لأنَّهُ لمَّا كانَ أوَّلُ السُّورةِ واردًا في طريقةِ التَّعامُلِ مع مَنْ أظهَرَ الكُفْرَ؛ تهيَّأَ المقامُ للكلامِ عن طريقةِ التَّعامُلِ مع مَن أبطَنوا الكفْرَ، وأظْهَروا الإيمانَ[2].

تقريعُ أهلِ النِّفاقِ ومَنْ يَتَوَلَّاهُمْ، ملمحٌ ضروريٌّ لكفِّ شرورهم

نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ(يا)، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

جاء النِّداءُ بِـ (يا)، في قول اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي في الأصل لنداء البَعيد، ونداءُ اللّهِ سُبحانَه لعبادِهِ نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداءِ لِلْبَعيد، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيد نكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بينَ الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العُلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوعِ النِّداءِ، وإظهارُ العنايَةِ بِهِ، والمُبالغَةُ في حَثِّهِم على المُحافظَةِ عليه.

إظهارُ العِنايَةِ بالنَّهي عَن تَوَلِّي غَيْرِ أَهْلِ الإيمانِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/175 - 176، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

الِانْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّيَاتِ المَعاني

النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قولِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ منه إلَّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هَذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

دلالة النِّداءِ بِاسْمِ الإيمانِ:

أَخَصُّ أَوْصافِ أَهْلِ الإيمانِ، امْتِثالُهُمْ أَوامِرَ اللهِ تعالى ونَواهيَهُ

وقَعَ النِّداءُ باسْمِ الإيمانِ في قول اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما سيُلْقَى إلَيْهِمْ مِنَ الوصايا، هو مِنْ مقتضَياتِ الإيمانِ شرعًا، ومِنْ شَعائِرِهِ ومعالِمِه[1]، وفي التَّعبيرِ باسْمِ الإيمانِ مناسبَةٌ لطيفَةٌ؛ وهي أنَّ وصفَ الإيمانِ مُشْعِرٌ بِالاسْتِعدادِ لامتِثالِ ما يأمرُهُم اللهُ تعالى به؛ وذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النّور: 51].

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ على تَجْديدِ إيمانِهِمْ والثَّباتِ عَلَيْهِ

جاءتْ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، هو ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والحدوثِ؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَجْديدِ إيمانِهِم والاستمرارِ عليه، وفي الإتْيانِ بها فِعْلًا ماضيًا هاهنا إشعارٌ بِأنَّ وَصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لَهُمْ، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ به.

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤْمِنينَ، وهُمْ مُقِرّونَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا) مِنْ قول اللهِ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.

به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ لَهُ حقيقَةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِهِ. والآخر: إرادَةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالْعُمومِ، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

غَرَضُ النَّهْيِ في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾:

النَّهيُ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، باقٍ على أصله في الدّلالَةِ على الإلْزامِ بالتَّرْكِ؛ إذِ التَّباعُدُ عنِ اتِّخاذِ الكُفَّار أولياءَ وأصْفياءَ ممَّا شاع عِلْمُهُ في دين الإسلام، وهو مِن مقتضياتِ الإيمانِ باللهِ تعالى، فكان النَّهْيُ عنِ اتِّخاذِ الكُفَّارِ أولياءَ يُرادُ به التَّحريمُ، ومُفادُه: "لا تتَّخذوا أقرباءكم - مِنَ الآباء والإخوان وغيرِهم - أولياءَ، تُفْشون إليهم أسرارَ المسلمين، وتستشيرونهم في أموركم، ما داموا على الكفر معادين للإسلام، ومَن يتَّخِذْهم أولياءَ، ويُلْقِ إليهم المودَّة، فقد عصى اللهَ تعالى، وظلم نفسَه ظلمًا عظيمًا"[1].

تَحريمُ اتِّخاذِ الكُفّارِ أَوْلياءَ، مِنْ مُقْتَضَياتِ الإيمانِ باللهِ ﷻ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاتِّخاذِ:

في التَّعبير بالاتِّخاذِ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى وجوبِ التَّباعُدِ عن منازعَةِ النُّفوسِ، إلى ما تدعو إليه الطِّباعُ مِنَ الرُّكونِ إلى الآباء والإخْوانِ؛ إذ معنى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾: لا تتعَمَّدوا وتتكَلَّفوا ذلك[2]؛ لما يتجاذَبُهُ نداءُ الإيمانِ مِنْ عَدمِ تولّيهِم، وما يدعو إليه الطَّبْعُ مِنَ المَيْلِ إليهم.

وُجوبُ إجابَةِ داعي الإيمانِ، ولو تَعارَضَ مع داعي غرائز الإنسان

نُكْتَةُ تَخْصيصِ الآباءِ والإخْوانِ بِالذِّكْرِ:

خُصَّ الآباءُ والإخوَةُ بالذِّكْرِ في قول اللهِ ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ

(1) نخبة مِن أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر: ص 190.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لأنَّه لا قرابَةَ أقربُ منها[1]، فإذا نُهيَ عن اتِّخاذِ هؤلاءِ أولياءَ؛ فالنَّهْيُ عن اتِّخاذِ غَيْرِهِمْ من بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى، ولَمْ يُنَصَّ على الأبْناءِ مع شدَّة قُرْبِهِم؛ إذِ الأبناءُ تبعٌ لآبائِهِم، ولهذا السَّبَبِ - كذلك - لَمْ يُذْكَرِ الأزواجُ؛ لكونِهم تابعينَ لأزواجِهِم، والتّابِعُ لا يَقْعُدُ بَعْدَ مَتْبوعِهِ[2].

النَّهْيُ عن اتِّخاذِ الكفرة مِنَ القرابة أَوْلياءَ، ناهيكَ عَنْ غَيْرِ القرابة

دلالَةُ جَمْعِ الآباءِ والإخْوانِ:

جُمِعَ الآباءُ والإخْوانُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِمَكانِ الجَمْعِ في صدْرِ الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليَكونَ النَّهْيُ متوجِّهًا لكلِّ فَرْدٍ مِن أفرادِ المخاطَبينَ عَن موالاةِ كُلِّ فَردٍ مِن أفرادِ المشركينَ، ووجهُ ذلك: أنَّه قد قُوبِلَ الجَمْعُ في الآباءِ والإخْوانِ بالجَمْعِ في (آمَنوا)، والمتقرِّرُ في القواعدِ: أنَّ مقابلَةَ الجَمْعِ بالجَمْعِ، تقتَضي القِسْمَةَ آحادًا، فلا يُرادُ بالنَّهْيِ في الآيةِ، النَّهْيُ عن موالاةِ طائفَةٍ مِنْهُمْ؛ فإنَّ هذا وإن كان صحيحًا في ذاتِهِ، إلَّا أنَّ الآيةَ إنَّما تدلُّ عليه بالدّلالَةِ لا بالعِبارَةِ[3].

النَّهْيُ عَنْ موالاةِ أَهْلِ الكُفْرِ أَفْرادًا وجَماعاتٍ

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِالحرف (إن):

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ ﴿إِنِ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، لِكَوْنِ (إنْ) مَوْضوعةً في الأصلِ لِعَدَمِ الجَزْمِ بوُقوعِ مَدْخولِها[4]؛ وذلِكَ لأنَّ اسْتحبابَ الآباءِ والإخْوانِ الكُفْرَ على الإيمانِ ليس مقطوعًا بأنّه يقعُ منهم، بَلْ قد لا يقع منهم، ويكونونَ مِنْ كُمَّلِ أَهْلِ الإيمانِ.

دِقَّةُ اخْتيارِ أَدَواتِ الشَّرْطِ بِما يُناسِبُ سياقاتِها

دلالَةُ تَقْييدِ النَّهْيِ بِالشَّرْطِ:

قُيِّدَ النَّهيُ عنِ اتِّخاذِ الآباءِ والإخْوانِ أولياءَ، بحالِ اسْتِحْبابِهِمُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.
(4) بهاءُ الدِّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/323.

الكُفْرَ على الإيمان، فقال سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ إذْ لا يُرادُ المَنْعُ مِن اتِّخاذِهم أولياءَ مُطلقًا، وإنَّما المَنْعُ مقيَّدٌ بالشَّرْطِ المذكورِ، فإن لم يفعلوا ذلك؛ لم يكُنِ اتِّخاذُهم أولياءَ ممنوعًا منه، بل إنَّ ذلك حَسَنٌ[1].

المَنْعُ مِن اتِّخاذِ الآباءِ والإخْوانِ أَوْلياءَ، مَشْروطٌ بِإيثارِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ

دلالَةُ السِّينِ والتَّاءِ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

في قولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، يجوزُ أن يكونَ المرادُ بِها التَّأكيدَ، كالّتي في نحو: اسْتَبشرَ، واستجابَ[2]، ويجوزُ أن تكون بمعنى الطَّلبِ، على ما هو الغالبُ فيها، والمَعنَى: طلبوا محبَّةَ الكُفْرِ، حتَّى أدركَوا هذه الطِّلْبَةَ، والمرادُ: أنَّهم أحبُّوهُ بشدَّةٍ وتعصُّبٍ، فكانوا مُغْرقينَ في الكُفْرِ، مُتعنِّتينَ فيه وفي عداوَةِ أهلِ الإيمانِ[3]، ولا تعارُضَ بينَ الدّلالَتين، بَلْ إنَّ إحداهُما تُقَوِّي الأُخرَى وتُؤَيِّدُها.

إغْراقُ الكُفَّارِ في كُفْرِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ، في عَداوَةِ أَهْلِ الإيمانِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

في التَّعبير بصيغَةِ الاستفعالِ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ دونَ (أحبّوا)، في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ لكثْرَةِ فضائلِه وظهورِ محاسنِه، وقوَّةِ أدِلَّتِه، محبوبٌ بالطَّبْعِ، فلا يكادُ يَتْرُكُهُ أحدٌ إلَّا بضَرْبٍ من ضروبِ المعالَجَةِ والتَّكلُّفِ والمكابرَةِ، لما تقتضيه العقولُ السَّليمَةُ[4].

كَثْرَةُ فَضائِلِ الإيمانِ وظُهورُ مَحاسِنِهِ وقُوَّةُ أَدِلَّتِهِ

دلالَةُ التَّضْمينِ:

في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أسلوبُ تَضْمينٍ؛ حيثُ ضُمِّنَ الفعْلُ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، معنى: فضَّلوا واختاروا

مَغبَّةُ اسْتِحْبابِ المعاندينَ الكُفْرَ، وعاقبةُ تَفْضيلِهِمْ له على الإيمانِ

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 4/2955 - 2956.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

وآثَروا، ولذا عُدِّيَ الفِعْلُ بحرف الجرِّ (على)، فصار المعنى: استحبُّوا الكُفْرَ وفضَّلوه على الإيمانِ، أو آثَروه عليه، أو اختاروه عليه[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ التَّفَعُّلِ: ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

في التَّعبير بصيغة التَّفَعُّلِ ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، دلالةٌ على التَّكَلُّفِ، وإشْعارٌ بأنَّ موالاةَ القريبِ المُعادي للدِّينِ، المنابِذِ لأهلِهِ، على خلافِ الأمرِ السَّهْلِ الموافِقِ لِشريعَةِ الإسْلامِ، مِن اعتبارِ الدِّينِ أصلًا في الوَلاءِ والبَراءِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾، أي: يتكلَّف أن يَفْعَلَ في شأنِهِم ما يفْعَلُهُ القَريبُ مع قريبِهِ[2].

مـــوالاةُ مَـن عـادى ديـنَ الله ورسـولَـه ظـلـمٌ وحسرةٌ وضياع

نُكْتَةُ إفْرادِ الضَّميرِ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

أُفْرِد الضَّميرُ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ من قول اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومَنْ يتَوَلَّوهُم)؛ مراعاةً لِلَفْظِ (مَنْ)، وإنَّما اختير مراعاةُ لَفْظِ (مَنْ) دونَ مُراعاةِ معْناها؛ للإيذانِ باستقلالِ كُلِّ فَرْدٍ منهُم، في الاتِّصافِ بالظُّلْمِ[3]، وهذا أَبلَغُ في الرَّدْعِ والزَّجْرِ عن تَولِّي أهلِ الكُفْرِ.

المُبالَغَةُ في الزَّجْرِ عَـن تَـوَلِّي مَـن جاهر بالكُفْرِ، احتراسٌ ووقاية

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمْ﴾:

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمْ﴾، من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يُرادُ بها الجِنْسُ لا التَّبعيضُ[4]، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ فيه تَرْكَ ولاية الحقِّ إلى ولاية الباطلِ، وذلك لأنَّ ﴿مِّنكُمْ﴾ تُومِئُ إلى أنَّ الأصل هو ولايتُهم لَكُمْ لا العَكْسُ[5].

تَرْكُ وِلايَةِ الحَقِّ إلى وِلايَةِ الباطِلِ ضلالٌ وتيه

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/17 - 18، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

براعَةُ استعمالِ حُـروفِ المعاني في مَـواضِـعِـهـا المُـنـاسِـبَـةِ لِسياقاتِها

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: 23]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: 9]، والاختلافُ بينَ الآيتينِ في زيادَةِ ﴿مِّنكُمْ﴾ في آية التَّوبَةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ التَّوبةِ، صُدِّرت بقولِه سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، فلمَّا كانت قرابَةُ هؤلاءِ شديدةً؛ كان الأنسبُ مزيدَ تنبيهٍ وتخصيصٍ بذِكْرِ ﴿مِّنكُمْ﴾، بخلاف آية الممتحنة، فقد صُدِّرت، بقولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: 9]، فلمَّا بُدِئَ بأداة الحصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾، وكانتِ القرابَةُ معدومةً، والعداوةُ بيِّنَةً، اكتُفِيَ بذلكَ التَّنبيهِ عن ذِكْرِ ﴿مِنكُمْ﴾.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الإشارَةِ:

انفصالُ المُتولِّي لِأهلِ الكُفرِ عن جماعةِ المُسلِمين ومُباينتُه لهُم

في التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نُكاتٌ[1]؛ أولاها: تَمْييزُ المشارِ إليْهِمْ أشدَّ تَمْييزٍ. وثانيها: التَّنبيهُ على أنَّ استحقاقَهُم الحُكْمَ المَذْكورَ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ، إنَّما هوَ بسبَبِ استحبابِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى انْفصالِ المُتَوَلّي لأهل الكُفْرِ، عَن جماعَةِ المُسْلِمينَ ومبايَنَتِهِ لَهُمْ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِإشارَةِ البُعْدِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

خَـطَـرُ تَـوَلِّي مَـن يـحادّ اللهَ ورسـولَـه، بـاعـتـباره مِـنَ الظُّلْمِ العَظيم

في اختيارِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهوَ دالٌّ على البُعْدِ؛ إشعارٌ بذَمِّهِمُ المفيدِ بُعْدَ مكانَتِهِم في الظُّلْمِ، وأنَّهم متوغِّلونَ فيه غايةَ الإيغالِ، وأنَّهُمْ مُبْعَدونَ عَنِ الحَضَراتِ الإلهيَّةِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

دلالَةُ ضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾:

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لا يُرادُ به دلالتُهُ على القَصْرِ، وإنَّما المرادُ به: تأكيدُهُ وتقويَتُهُ؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ من تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، وأُكِّدَتِ الجملةُ بإيرادِها اسميَّةً؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ، آكَدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى اسْتِمْرارِ المذكورين على الظُّلْمِ، ما داموا مُقيمينَ على تَوَلِّي أهلِ الكُفْرِ، ولو كانوا أُولي قُرْبَى.

تَلَبُّسُ العَبْدِ بِالظُّلْمِ نِتَاجُ تولِّيه غيرَ اللهِ ورسولِه

بَلاغَةُ القَصْرِ:

في قول اللهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أُسْلوبُ قصْرٍ، وهو من قصر الصِّفَةِ على الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَي الإسْنادِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ففيهِ قصْرُ الظُّلْمِ على أولَئِكَ المَذْكورينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هو المُعَرَّفُ باللَّام، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مؤخَّرًا، وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذ إنَّ ظاهرَ قولِه سبحانَه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يَقْتَضي نفيَ كونِ غَيْرِهم ظالمًا، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ الظُّلْمَ مراتبُ ودرجاتٌ وأَصْنافٌ، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ، وليس حقيقيًّا تَحْقيقيًّا، والمعنى: إنَّهم هُمُ الظَّالمونَ البالغونَ في الظُّلْمِ غايتَهُ، حتَّى كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ظُلْمِهم ليس بشيءٍ؛ وفي هذا مِنَ الزَّجْرِ والرَّدْعِ عَن موالاةِ الكفَرَةِ ما فيه[1].

زَجْرُ أهلِ الإسْلامِ ورَدْعُهُمْ عن موالاةِ أعداءِ الله وأعوانِهم

دلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من قول اللهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، تدلُّ على الكَمالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الظُّلْمِ، الغارقون فيه، والمعنى: أولئك المتوَلّون هُمُ الظَّالمون، بوضعهِمُ الموالاةَ في غير موضعِها، كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم كَلَا ظُلْمٍ عند ظُلْمِهم[2]، حيث ارتكبوا الظُّلم البَواح،

تَوَلِّي أهلِ الجحودِ مِنْ أعْظَمِ الظُّلْمِ، بِحُكْمِ رَبِّ الوجود

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.

بممالأة الكفر الصُّراح، فأشار اللّهُ تعالى إلى عِظَم ذلك الظُّلم، وكانوا مشارًا إليهم بوصفهم بذلك، فقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

بَراعَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ؛ لعَدَمِ استقلالِهِ، وعَدَمِ فَهْمِ تمامِ المرادِ مِنْهُ إلَّا بما قَبْلَهُ، والمرادُ بجملَةِ التَّذييلِ: وعيدُ مَن يَفْعَلُ ذلك وتهديدُهُ[1].

تَهْديدُ مَنْ يَتَوَلَّى الكُفّارَ ووَعيدُهُ حِكْمةٌ مِنَ الله وعدلٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّوَلِّي، والموالاة:

التَّولِّي أخصُّ مِنَ الموالاةِ مُطْلَقًا، فكلُّ تَوَلٍّ موالاةٌ، وليسَتْ كُلُّ موالاةٍ تَوَلِّيًا، ووَجْهُ هذا الخُصوصِ: أنَّ التَّوَلِّي يُفيدُ معنى الاتِّخاذِ والالتزامِ الكامِلِ، بِمَنْ يتولَّاهُ، بخلافِ الموالاةِ، فهيَ دالَّةٌ على المحبَّةِ والمتابَعَةِ، بدرجاتٍ متباينَةٍ، فإن قَويَتْ واشتَدَّت صارَتْ تَولِّيًا[2]؛ ولذا يُطْلِقُ جماعَةٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ على التَّوَلِّي: الموالاةَ الخاصَّةَ، وعلى الموالاةِ: الموالاةَ العامَّةَ[3].

التّـولّي أخـصُّ من الموالاةِ، وكلُّ تـولٍّ مـوالاة، ولـيـسـت كُـلُّ موالاة تولّيًا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.
(2) البدرانيّ، الولاء والبراء والعداء في الإسلام، ص: 38 - 40.
(3) محماس الجلعود، الموالاة والمعاداة في الشَّريعة الإسلاميَّة: 1/33.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»